مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية المجلد 14 (العدد 1) 1412هـ-1992م.

الغربة في شعر حسن بكر العزازي

الدكتور محمود درابسة
جامعة اليرموك - الأردن

تتناول هذه الدراسة موضوع "الغربة في شعر حسن بكر العزازي"، الشاعر الأردني المغترب الذي لم يحظ بعد باهتمام الدارسين. لقد كشفت الدراسة عن الغربة المكانية والذاتية عند الشاعر، ومدى تفاعله مع معاناته المرضية في بلاد الغربة. فضلا عن ذلك، فإن موضوع الغربة يشكل السمة الغالبة في ديوان الشاعر الوحيد المسمى "عيون سلمى". كما تناولت الدراسة أثر موضوع الغربة في البنية الفنية للقصيدة عند الشاعر.

تتناول الدراسة الاجتماعية والأدبية المعاصرة مصطلحين هما: الاغتراب والغربة. وذلك لما لهذين الموضوعين من أثر بارز في تشكيل الشخصية الانسانية سواء أكانت شخصية انسان عادي أم شخصية فنان. ولما كان الاغتراب(2) يعكس حالة مرضية تصيب الانسان في كل زمان ولاسيما في هذا العصر المتسارع تكنولوجيا واقتصاديا واجتماعيا، وما يسبب ذلك الانسان من حالة مرضية تتمثل في العزلة والاكتئاب وعدم التكيف مع أفراد المجتمع، فإن الغربة تختلف عن الاغتراب في كونها تتعلق بالغربة المكانية وما يتولد عنها من حنين وشوق للوطن الأم بكل مكوناته من أهل ومجتمع وحضارة، فضلا عن حالة الغربة الذاتية أو الروحية التي تتمخض عن الغربة المكانية فتجعل الانسان المغترب عن وطنه يلجأ إلى استدعاء صور من الماضي كصور الطفولة، ومراتع الصبا، وبعض مكونات البيئة المحلية من طبيعة، وعادات، وتقاليد، ليجسد من خلال ذلك حبه وارتباطه بالوطن الأم الذي ولد وترعرع فيه، وإليه ينتمي تاريخيا وثقافيا وحضاريا.

والغربة التي نحن بصدد دراستها في شعر حسن بكر العزازي هي غربة طوعية لاغربة قهرية، حيث جاءت هذه الغربة من أجل العلم والعمل معا. يقول العزازي في توطئته لديوانه "عيون سلمى": *"لقد شاءت أقداري أن أغادر عمان في منتصف الخمسينات طلبا للعلم والعمل في أوربا*(3)". إذن لم تكن غربة العزازي ذات بعد سياسي أو قهري، وإنما غربة طبيعية تحدث مع كثير من الناس، تلك الغربة التي أصابت بني البشر منذ العصور القديمة، حيث كان الانسان في العصر الجاهلي مثلا ينتقل من مكان لآخر طلبا للكلأ والماء(4). وهذا هو ديدن الانسان منذ ذلك الزمن وحتى هذا العصر حيث يهاجر الناس إلى البلدان الغنية والمتقدمة علميا وصناعيا طلبا لظروف معيشية أفضل مما هو في أوطانهم(5).

وقد جاء تناول موضوع "الغربة" عند الشاعر العزازي نظرا لأن هذا الموضوع يشكل الإطار الذي يجسد شعره، والبؤرة المركزية لقصائده وصوره في ديوان شعره الوحيد. فضلا عن ذلك، فإن الغربة في شعر العزازي قد أذكى نارها المرض العضال، وفكرة الموت وصورته التي رافقت حياة الشاعر طيلة إقامته في بلاد الغربة، مما جعل لشعره نكهة خاصة، ولا سيما أن تنامي البناء الفني عنده قد جاء مرتبطا في شعره بهذه الغربة. فضلا عن ذلك، فإن الغربة المكانية في شعره تمثل رفض المكان الحلم الذي انتقل إليه وهو أوربا أو بلاد الغرب بحضارتها المتسارعة وبين الوطن الأم الذي يقع في بلاد الشرق حيث الدفء والنخوة والكرم والتاريخ والحضارة، وهذا ما جاء في ثنايا شعر العزازي(6).

تتجسد ظاهرة الغربة في شعر العزازي في الغربة المكانية – بشكل عام – وما يتولد عنها من غربة عن الأهل والمجتمع والبيئة والذات، وأن الشعور بمرارة الغربة وشدة الحنين إلى الأهل والوطن ومرابع الصبا يتولد من خلال الإحساس بالموت أو اشتداد المرض(7)، وأن المرض العضال الذي أصاب الشاعر العزازي فاتحل جسده وذهب ببصره قد جعل من غربته غربة حقيقية. ولا بد هنا من تقسيم موضوع الغربة عند الشاعر العزازي إلى قسمين لأغراض الدراسة هما: الغربة المكانية والغربة الذاتية. فالغربة المكانية هي الإطار الذي يشكل غربة الشاعر، ويندرج تحته غربته الروحية أو الذاتية التي تتمثل في استدعاء الماضي، واستذكار أيام الطفولة ومرابع الصبا، ومكونات

البيئة التي عاش فيها الشاعر، منتزعا بذلك نفسه من مرارة غربته، وبعده عن وطنه الأم.

الغربة المكانية:

لقد شكل البعد عن الوطن عند الشاعر العزازي مصدرا للقلق وهاجسا للخوف، فقد قضى شاعرنا أكثر من عشرين سنة في بلاد الغربة لم يستطع مع طول هذه المدة التكيف مع حضارة المجتمع الغربي وثقافته، تلك الثقافة التي تختلف عن ثقافة وحضارة المجتمع العربي الذي ينتمي العزازي إليه. فقد عاش الشاعر في بلاد الغربة غريبا غير مندمج أو منصهر مع المجتمع الصناعي الغربي، إذ بقي الشاعر في قلق حول مصير هويته الحضارية الشرقية فالانتماء والعودة والهوية الحضارية أصبح محور اهتمام الشاعر وهاجسه، ومصدر قلقه وتوتره، إذ إن السؤال الذي بقي يلازم العزازي عن الهوية والوجود والانتماء. يقول في قصيدة "أين المفر" ؟ :

أين المفر؟
حولك البحر ...
وحول البحر أشواك ... وغيلان ... وصخر
ومفازات وراء الشوك ...
في أحشائها تيه وجمر
أين تمضي؟ ... صاح بي اليأس ...
ولست اليوم أو في الغد طير؟
خسئ اليأس !
فما عمان إلا الوحي للفن والشعر
رغم أنف اليأس تبقى ...
في شعوري والنوى ضفة نهر
تنبت الدفلى ...
ويبقى البعد عنها كبقاء الموت مر(8)

تجسد هذه اللوحة الشعرية حالة الصراع بين المكان الطارئ والمتمثل في بلاد الغربة وبين الوطن الأم الموجود في ذهن الشاعر وقلبه. فاللوحة تصور حالة اليأس والقنوط والتقوقع في إطار الحضارة الغربية الجديدة، تلك الحضارة التي تشكل حصارا من الشوك والصخر والغيلان التي تحاول منع الشاعر من الخروج منها، فهي تمثل الموت بالنسبة للشاعر، والبعد عن الوطن، الذي يمثل دوحة الشعر والفن والوجود الحضاري والثقافي يعني الموت الحقيقي للشاعر العزازي، فالصراع هنا، صراع ضد اليأس الذي يخاطبه العزازي بفعل الرفض والتوبيخ فيقول: خسئ اليأس. إن الشاعر يعيش هنا حالة من التوتر والصراع بين الذات وبين اليأس الذي يحاول فرض واقع جديد عليه، ويحاول استبدال حضارة العزازي بحضارة جديدة، تلك الحضارة التي يصفها الشاعر بأنها محوطة بالأشواك والموانع، لأنها حضارة مرفوضة لا يمكن للانسان التكيف معها أو الاستمرار في العيش في إطارها. وأن علامات الاستفهام والتأثر التي وجدت في النص قد أبرزت حالة التوتر والصراع وعدم الاستقرار والتوازن في ذهن الشاعر، تلك الحالة التي تعكس حالة الصراع الحضاري والبحث عن مكان انتماء حقيقي. ذلك الانتماء المتمثل في العودة إلى الوطن الأم. ذلك الوطن الذي يمثل الامتداد والخلود، فهو وطن الشعر والفن والحضارة، بينما وصف الشاعر حضارة الغرب، المكان الجديد الذي انتقل إليه، بأنها محوطة بمفازات التيه والمرارة والجمر.

وقد تمثلت الصدمة الكبرى للشاعر عندما حاول الاندماج مع الحضارة الغربية الجديدة، فقد

وجد نفسه غير قادر على التكيف معها على الرغم أنه حاول ذلك عن طريق حصوله على الجنسية الهولندية. بيد أن الشاعر وجد نفسه حائرا ورافضا. فقد رفض حضارة الغرب في حين رفضه بلده الأردن من العودة إليه من دون تأشيرة دخول إليه كأجنبي، تلك الصدمة من كلا الجانبين، حضارة الغرب وحضارة الشرق المتمثلة في وطنه الأردن قد جسدها الشاعر في قصيدة بعنوان "تأشيرة" التي تصور عدم قدرته على السفر إلى الأردن دون الحصول على إذن من سفارتها، وهذه الحالة قد دفعت العزازي إلى معاتبة وطنه بقوله:

مالطريق إلى عمان موصـــــــدة
كأن عمان ما كانت لنـــــــا دارا
ولم تكن برموش الهدب عالقـــــة
ولا شخصنا لها قلبا وأبصـــــارا
كأنها ما أتت في الليل زائـــــرة
ولا أتينا لها في الحلـــــم زوارا
ولا اتخذنا من الأشواق طـــــائرة
أو من حنين إلى عمان طيـــــارا
باربعنا في ربى الأردن مـــــعذرة
ما طاب يوم بلا عمان، بل جـــارا
ولا سواها من البلدان يعجبنـــــا
ولا هوى كهواها أشعل النـــــارا
سلوا رباها فقد أودعتها زمنـــــا
غرارتي وصبا قد صار تذكـــــارا
تأشيرتي، سيدي، في الخد قد حفرت
بأدمع الشوق شطآنا وأنهـــــارا (9)

لقد كشفت هذه اللوحة عن حالة الوهن والضعف والشعور بالذنب عند الشاعر العزازي، فقد عاتب الوطن الأم لعدم إعطائه تأشيرة دخول إليه بالسرعة التي يريدها، وأخذ يكشف عن حبه وتعلقه بالوطن. فيعاتب الشاعر الوطن من خلال استذكاره لسنوات العمر الأولى، وهي مرحلة الصبا التي قضاها في ربوع الوطن حبا وانتماء. فقد تساءل الشاعر بمرارة عن ذلك الرفض الذي وجده في طريقه إلى الوطن، كما قدم الشاعر اعتذاره للوطن وإعلانه أن سنوات العمر خارج الوطن ما قضت على محبته وانتمائه، كما أن حصوله على الجنسية الأجنبية لم يفقده تعلقه بهوية وطنه الحضارية، فالشاعر يعيش حالة من القلق والحيرة والتردد والبحث عن استقرار نفسي ومكاني، وهذا لايتحقق إلا بالهوية الحضارية، والانتماء، والحب الذي يمنحه الاستقرار والعضوية الحقيقية كفرد ومواطن في مجتمع مختمر حضاريا وثقافيا(10)، ذلك المجتمع هو المجتمع العربي الشرقي الذي يجسد تلك الحضارة التي تحقق استقرار الشاعر والتي سرت في دمه وترسخت في قلبه، فلم يعد قادرا على قبول غيرها.

ويرتبط بالغربة المكانية الإحساس بالزمن المتسارع. فقد وصف العزازي سنوات الغربة والبعد عن الوطن بسنوات التيه والضياع. يقول:

عشرون عاما من الأشواق والـصبر
مرت فكيف انقضت والله لا أدري
جرى بها الدهر تكذيبا لمن زعـموا
أن الزمان الذي تخشاه لا يجـــري
تلك الليالي توالت وهي في نظـري
صفر يضاف بهذا البين للصفـــــر
بلى وربك ياعمان، معـــــذرة
فلا تعدي سني التيه من عمـــري
فكم زعمت بهذا البين مفتريـــــا

أني زهدت بشوق قاصم ظهـــري

أقول لا مهجتي من شوقها احترقت
ولا الحنين لك المدني من القبـــر
وليس أترابنا ظلوا كما عهـــدوا
ولا بعمان ربعي عاد بي يـــدري(11)

يجسد هذا النص المعنى الحقيقي للزمن الذي قضاه الشاعر غريبا خارج وطنه، فهذه المدة الزمنية التي تشكل نصف عمر الشاعر لا تعد من سني عمره، فقد أسماها بسنوات التيه والضياع والتشرد وعدم الاستقرار. وقد قضى الشاعر شطرا طويلا من حياته يبحث من خلال عمله ودراسته في بلاد الغرب عن وجود له في هذا المجتمع الحضاري الغربي الجديد، بيد أنه أحس بثقل سني الغربة وأن هذه الفترة الزمنية خارج الوطن لم تمكنه من الحصول على المال أو الاستقرار، وإنما هي سنوات تيه وتشرد، حيث أصبح الشاعر في حضارة الغرب مجرد رقم في بطاقة الهوية، بينما في وطنه الأم أكبر من ذلك بكثير. فالعزازي يحس بهروب وانقضاء الزمن بسرعة كبيرة، إذ إن الانتماء إلى المكان يرتبط بالزمن، فخشية الشاعر من ضياع الزمن، هو بحد ذاته الخشية من فقدان الوطن انتماء وحضارة(12).

وقد تنامى رفضه القاسي للغربة والرحيل عن الوطن من خلال قصيدته "طائر الأشواق" التي تجسد لحظة وداعه للأردن بعد زيارة قصيرة لها، يقول:

تجيل طرفا على عمـــان دوارا
حارت عيونك في دار تشيـــعها
والدمع يهطل من عينيك مـــدرارا
قبل الرحيل، أم الأحبابا والـــجارا
لبئس يوم وقفنا كي نـــودعها
فيه، نلثم أحجارا وأشـــجارا
وحانت الساعة الكبرى فما وجفت
أرض كقلبك أو مارت كما مـــارا
غداة طارت بنا في الجو طائـــرة
وقودها لوعتي تذكي بها النـــارا
ماكنت أحسبها عقاء مغربـــة
أو أن "حنظلة" قد بات طيـــارا
العمر يجري ودمعي لم يزل غدقا
يجري سيولا على خدي وأنهارا
تب الرحيل وتبت ساعة شـــهدت
مر الفراق فلا كانا ولا صـــارا(13)

يكشف هذا النص عن حالة التنازع بين حضارة الغرب بكل مقوماتها الاقتصادية والعلمية التي كانت موضع اهتمام الشاعر، وسبب غربته عن وطنه وبين الوطن "الأردن" الذي يمثل الوجود الحضاري والثقافي للشاعر، فنراه يغادر أرض الوطن وقلبه معلق به، وقد تنامى الإحساس بالرفض لفكرة الغربة من خلال استخدامه للعبارة "تب الرحيل"، ولعل في ذلك إيحاء دينيا من خلال آية "تبت يدا أبي لهب وتب" (14)، تلك العبارة التي تعني الرفض واللعنة على فكرة الرحيل والغربة. فضلا عن ذلك، فقد صور الرحيل بموعد قيام الساعة، وذلك ليجسد من خلال هذا المشهد هول المصيبة التي أصابته في غربته ورحيله عن وطنه. كما استخدم الشاعر رموزا دينية تتمثل في لثمه حجارة بلده، ولعله بهذه الرموز مجتمعة يرى في وطنه ذلك الشيء الحضاري والتاريخي المقدس إزاء حضارة الغرب المصطنعة التي عد حياته فيها في قصيدة سابقة حياة الضياع والتشرد والتيه.

إن ظاهرة الإحساس بالغربة المكانية قد تنامت من خلال بروز ظاهرة المرض العضال(15) الذي أصاب الشاعر. فقد عانى من أمراض مختلفة، كما فقد بصره نتيجة لهذه الأمراض، وقد انعكست هذه الحالة في شعره، فأصبح الانسان منا يقرأ في شعر العزازي مأساة فقدانه لبصره، حيث شاعت في الديوان عبارات الدموع والعيون والعمى والبصر. يقول مشبها حاله بحال النبي يعقوب عندا استرد بصره من خلال قميص يوسف، حيث يرى الشاعر أن قميص عمان ورائحة الوطن ترد له بصره وتنسيه مصيبة العمى:

ألقوا على عيني اليسرى إذا عميت
بثوب عمان إن الشوق أضناني
ترتد مبصرة عيني وسالمة
والأنف ينشق نسرينا وريحانا
لا ذكر عمان أغنى عن موبتها
ولا هوى الغيد عن عمانا أغرانا(16)

ويقول أيضا:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري
فاليوم كل عزيز (بعدها) هانا(17)

لقد شكلت الغربة عن الوطن في ذهن العزازي ووجدانه الخطيئة والمعصية التي لا يمكن التكفير عنها إلا بالموت الذي يجسد المغفرة والمنقذ له(18) فعندما يعود الشاعر إلى وطنه ويدفن فيه فإنه يدفن معه سنوات الغربة والتيه والبعد، وينهي بذلك تلك الخطيئة التي لعنها أكثر من مرة والتي تتمثل في غربته وابتعاده عن الوطن بكل مقاوماته الحضارية والثقافية. ولذا يعد الشاعر دفنه في وطنه بمنزلة بشرى وخير يتخلص من خلاله من غربته عن الوطن، يقول:

أبي توفي بالأشواق محترقا
من مات شوقا إلى الأردن ماافتقرا(19)

ويقول أيضا:

إني أعيش بحلم لا يفارقني
حتى تفارق روحي يومها بدني
إن تدفنوني به إن حل بي أجلي
بطيب ذاك الثرى بشراك يا كفني(20)

الغربة الذاتية:

لقد تولد عن غربة العزازي المكانية في بلاد الغرب ذات الحضارة والثقافة المختلفة عن حضارة الشرق وثقافته غربة روحية أو ذاتية جعلت منه غير قادر على التكيف مع حضارة المجتمع الغربي التي لم تكن أكثر من محطة مؤقتة في حياة الشاعر تنتهي بانتهاء الغاية التي سافر من أجلها، وهي الحصول على العلم والمال معا. والواقع أننا إذا أنعمنا النظر في حياة العزازي خارج وطنه ألم وجدنا أنها حياة متقلبة بين الصحة والمرض، والاندماج والانفصال الحضاري(21). فقد قضى شاعرنا شطرا طويلا من حياته خارج الوطن، وعانى خلال الغربة قسوة المرض ومرارة البعد عن الوطن والأهل وأيام الصبا، بيد أنه حاول تقليص المسافة الحضارية بينه وبين المجتمع الغربي الجديد، وذلك بالحصول على الجنسية الهولندية كي يصبح فردا من أعضاء المجتمع، غير أن الحضارة التي ينمو فيها الإنسان وتنمو معه شيء والحضارة التي يحصل الإنسان

على عضويتها عن طريق التجنس بجنسيتها شيء آخر. فقد أخذ العزازي في هولندا دور المدافع عن حقوق العمال الأجانب، وبخاصة العمال العرب، وذلك ليقف إلى جانب أبناء جلدته وحضارته أمام أبناء الحضارة الغربية التي تتعامل مع الانسان مجردا من حضارة بلده وثقافته. وبذلك يكون العزازي قد مثل الطرف الخصم أو المناقض بدلا من أن يصبح طرفا من أطراف الحضارة الغربية. وخاصة بعد أن تخلى عن جنسية بلده ليتجنس بالجنسية الهولندية(22).

وقد تمثلت مظاهر الغربة الذاتية عند شاعرنا من خلال قصائده المتعددة التي تفوح بذكريات الماضي وصور الطفولة ومراتع الصبا وأيام الشباب. ولا شك أن الغربة الذاتية والمتبلورة عن الغربة المكانية يتولد عنها الحنين الجارف والشوق العارم للوطن بكل مظاهره وذكرياته، ولعل أجمل الصور المتبقية في ذهن الشاعر المغترب هي صور الماضي وذكريات الطفولة والشباب في أحضان الوطن(23). تلك الذكريات التي تستشرف الماضي، وتكشف الزمن، وتنتزع الشاعر من غربته المكانية لتعيده إلى الوطن بأجمل صوره ومظاهره.

يقول العزازي في قصيدة "ذكرى" :

وليس أترابنا ظلوا كما عهدوا
ولا بعصان ربعي عاد بي يدري
يكذب الشوق ماذل اللسان به
ويفضح الدمع ما خبأت في الصدر
لله درك أشواقي التي نزعت
إلى ملاهي الصبا في موطن الفخر
إلى جباه أبيات ... إلى خلق
هو السنا من جباه الأنجم الزهر
هل الشريعة فياض كعادته
وهل تقبله الدفلى على الثغر
هل للجنادب موسيقى منغمة
وهل تغني على ألحانها القمري
هل الرعاة إلى الأغنام قد ذهبوا
على المزامير حتى مطلع الفجر
وفي البيادر هل "هب الهوا" وشدا
له المذري فأشجى الروح بالسحر
وهل "تاعور" ظل الظبي يشرد من
لفح الهوى ويطيل الوصل بالسمر
سقيا لعهدك ياعصان إن لنا
فيض الدموع وفضح العذر بالعذر(24)

ويضيء هذا النص طبيعة الغربة الذاتية عند شاعرنا. فقد جسد النص حنين الشاعر وفيض ذكرياته عن الوطن، كما رسم معالم ومظاهر البيئة المحلية بكل تفصيلاتها، وذلك نزوعا إلى أيام الصبا والشباب في بلاد الشرق وبالذات في وطنه الأردن. إن هذا النزوع الرومانسي عند العزازي يعكس تعلق الشاعر بوطنه ورفضه لكل مظاهر الحضارة والمدنية الغربية المعقدة. إن رسم معالم المكان في هذا النص يجسد البعد الزماني والروحي للشاعر، فقد أثارت هذه المشاهد البيئية في وطنه المتمثلة في الرعاة ومزاميرهم، والمحبوبة في "تاعور" والأغنام والبيادر البعد الزمني في حياة الشاعر، حيث جنح العزازي إلى تكثيف الذاكرة واستدعاء صور من الماضي الطفولي والشبابي ليستعيد وجوده وشعوره بكيانه الانساني الذي يتحقق في وطنه الأم. فقد أصبح للجنادب معنى جديد يبعث موسيقى الحب والبساطة وليالي الأنس في ربوع البيئة الطبيعية في وطنه. وإن هذا النزوع إلى البساطة والطبيعة هو ديدن الشعراء المغتربين منذ القدم(25). إذ إن هذا النزوع

يعد مخلصا لهم من وحشة الغربة وقسوتها، ومعيدا لهم إلى وطنهم ودفء حضارته وثقافته.

ويعد الفخر والكبرياء والتباهي بالوطن بكل صوره مظهرا من مظاهر الغربة الذاتية(26). فقد برزت روح الأنفة ومظاهر الاعتداد بالوطن في كل قصائد شاعرنا، كما عكست هذه القصائد عدم تكيفه مع ديار الغربة التي تعد غريبة عن الشاعر حضارة وثقافة. فلا شيء عند العزازي يعادل كبرياء وطنه. يقول:

ياربغا في ربى الأردن معذرة
ماطاب يوم بلا عمان، بل جارا
ولا سواها من البلدان يعجبنا
ولا هوى كهواها أشعل النارا(27)

وفي لوحة أخرى تظهر الأنفة الحقيقية عند الشاعر التي تشفي الروح من غربتها، وتردها إلى موطنها، فضلا عن اعتزازه بالقيم الخلقية والانسانية التي تشكل طبيعة الحياة الاجتماعية في وطن الشاعر "الأردن"، يقول العزازي في قصيدة "ربعي":

إني لمن معشر بروا بما وعدوا
أما الوعيد فمنا غير منتظر
نأتيك بالفعل قبل القول إن عصفت
بنا الحمية لا تغضي على صفر
قد تستغيث وما للمستغاث به
حول مع الأسد أو طول مع القدر
ضاقت على رحبها الدنيا عليك فلا
ملاذ إلا بنا أو عفو مقتدر
نحن المنايا وسم الرقط إن عضبت
فإن عفونا فقل أسخى من المطر
من طينة الجود صاغ الله معدننا
والبر شيمته الإنيان بالدرر(28)

ويقول أيضا في القصيدة نفسها:

وقولنا "يامرحبا" للضيف نكرمه
أحلى على سمعنا من رنة الوتر
الأردني إذا الدنيا به غدرت
والناس ظل عزيز النفس بالوفر
ياقومي الصيد لولا أنكم بشر
قالوا من الطهر، ما أنتم من البشر(29)

تظهر هذه الأبيات الشعرية ذلك الرفض القاطع لغير القيم العربية الأصيلة التي نمت في وجدان الشاعر وشكلت شخصيته. فهاهو ينزع الشاعر روحيا إلى قيم وطنه وأمته التي تمثل القيم الانسانية الحقيقية التي ينبغي توافرها في المجتمع الانساني، مجتمع القيم والتقاليد والثقافة، وهذا ما تفتقده المجتمعات الغربية التي أصبحت الحياة فيها آلية تفتقد إلى التقاليد والقيم التي تجسد المحبة بين أفراد المجتمع تلك القيم التي مازال يحافظ عليها المجتمع العربي الشرقي، ولذا نرى الشاعر يعتز بكل أنفة وكبرياء بقيم الكرم والشهامة والعفة في ربوع وطنه الأردن. فاعتزاز الشاعر بهذه القيم إنما هو اعتزاز بالتراث الحضاري للشرق العربي مقابل ذلك النزوع المادي للحضارة الغربية التي رفضها العزازي غير مرة في قصائده. فالأبيات الشعرية تجسد النزعة الذاتية المتمثلة بعدم التكيف مع قيم المجتمع الغربي وحضارته المادية.

إن نزوع الشاعر هنا إلى البساطة والقيم الانسانية هو رفض لالغاء انسانية الانسان، واحترام

لمشاعر الانسان، وتجسيد لروح المحبة بين الناس، ولهذا فقد ركز العزازي على صور الترحيب المتمثلة بعبارات الجود والكرم ولاسيما "ياهلا" التي تشكل عنوان المحبة الانسانية العفوية، تلك القيم التي افتقدها العزازي عندما اغترب عن وطنه، فحنت روحه إليها، ذلك الحنين الذي يعكس النزعة الذاتية للوطن وقيمه، وتراثه، وعدم التكيف مع المجتمع الغربي الذي تحكمه القيم المادية المقيتة.

إن من الطبيعي أن تؤثر الغربة المكانية والذاتية على بنية القصيدة، وذلك لأن الغربة ليست حادثا بسيطا أو عفويا في حياة الانسان المغترب أو في حياة الوطن الذي يغترب ابناؤه إلى ديار أخرى طلبا للعلم أو العمل. فإن هذه الحالة تعمق من المشاعر المتبادلة بين الوطن وأهله، فيشتد الحنين وتبرز علامات ومظاهر الألم والحزن والحسرة في شخصية المغترب، ولا سيما عندما يكون المغترب شاعرا أو فنانا، فعندئذ تظهر الانفجارات العاطفية المصحوبة بمسحة من الألم والحزن الشديدين في شعره أو فنه(30). وعندما يكون الشاعر مريضا أو مغتربا، فإن صورة الموت تكون أقوى في مخيلة الشاعر وفي عمله الشعري الابداعي، وبخاصة وهو يعاني من ألم الغربة ومراراتها، وكذلك من صورة الموت المزعجة، وهذا ما أصاب فعلا شاعرنا حسن بكر العزازي الذي قضى سنوات الغربة بين الحنين إلى الوطن ورفض الغربة، وبين الشكوى من المرض وقلق الموت، وذلك بعيدا عن الأهل والوطن.

ومن الواضح أن الشاعر عندما يفتقد الوطن والأهل فإنه يلجأ إلى تكثيف قدرته التخيلية وذاكرته من أجل استعادة صور الماضي، صور الطفولة وأيام زهو الشباب في أحضان الوطن، وكأننا فعلا أمام مشهد لهروب رومانسي من الزمن الحاضر إلى الزمن الماضي المرتبط بالمكان وهو الوطن الأم(31). يقول الشاعر:

لله درك أشواقي التي نزعت
إلى ملاهي الصبا في موطن الفخر
إلى جباه أبيات ... إلى خلق
هو السنا من جباه الأنجم الزهر(32)

إن الموضوع الشعري ينعكس بشكل واضح على الأداة عند شعراء الغربة، حيث تكثر إشارات الاستفهام، والنداء،والاستغاثة، والانفجارات العاطفية الباكية، مما يجعل الشاعر يركز على حروف وصور وتعابير معينة فيها اللين والبساطة والعفوية التي تجسد حالة القلق والتوتر وهاجس الخوف من المستقبل خارج الوطن الأم، تلك المشاعر المتمركزة في أعماق الشاعر(33)، تعكس الصورة الحقيقية للمغترب.

يقول العزازي: *كلما فاضت بي الأشواق صاح اليأس بي:*

أين المفر؟
حولك البحر أشواك ... وغيلان ... وصخر
أين تمضي؟ ... صاح بي اليأس...(34)

ويقول في قصائد أخرى:

يا عيوني أنت ياسلمى ومـــا
خلق الباري كسلمى ثم ســـوى (35)
يالحرمانك لما لم تعـــد
بعد هذا البين من سكناهـــا(36)

لا ... لا تطيق على سلوانها جلدا
سلوان عمان آلام وأحـــــزان(37)

وقد فرض موضوع الغربة على الشاعر الابتعاد عن الزخارف اللفظية والبديع، وكذلك جزالة الألفاظ وقوتها واللجوء إلى الكلمات السلسة والتركيز على حروف المد التي تمكن الشاعر من نفث همومه وأحزانه من خلالها، فضلا عن ذلك، فقد لجأ إلى التركيز على الموسيقى الحزينة التي تنقل توتر الشاعر، وتجسد آلامه وأحزانه. ولهذا فإن المرء يلاحظ ابتعاد الشاعر العزازي عن الصور الشعرية المعقدة والمكثفة، فأصبحت لغة قصائده تميل إلى اللغة العادية البسيطة مع المحافظة على سلامة اللغة والتراكيب الشعرية، تلك اللغة البسيطة والعفوية تعبر عن شيء مجرد في الحياة، وهو غياب الوطن(38). يقول العزازي في قصيدة "باقة" التي تجسد أصعب فترة في حياة الشاعر وهو يمثل على سرير المرض بعد أن استفحل فيه المرض وفقد بصره. حيث استخدم الشاعر في هذه القصيدة عبارات بسيطة تنم بالمرارة والألم: لأنه فقد بصره دون أن يرى عمان الوطن والوجود، فقد ربط حبه لمشاهدة عمان بابنته "سلمى" التي تمثل رمزا للحب والانتماء مثل عمان الوطن والوجود. ولذا فقد استعمل حروف المد التي تحمل الطاقة المختزنة من الألم في أعماقه، فهذا الحرف يطلق الحسرة والألم المتمركز في نفس الشاعر:

يا عيوني أنت يا سلمى ومـــا
خلق الباري كسلمى ثم ســوى
أنت نور العين في ظلمائهـــا
وعبير الزهر في روض مروى
حين غاب النور، عيني شاهدت
منك عبر الأذن أحلى مابـــحوا
إن سلمى مثل عمان التـــــي
لم تزل في خاطري والعين ضوا
خبريها سا سليمى أن فـــــي
ذكرها العاطر للحب سمـــــوا
جلتها برا وبحرا في المنـــــى
ولها سافرت في الأحلام جـــوا(39)

ولما كان المكان هو الصورة الفنية التي تبعث فينا ذكريات الماضي في الوطن بكل مكوناته الجمالية والحضارية، فقد لجأ الشاعر إلى تكثيف الزمن والعودة بالذاكرة إلى الماضي الجميل في ربوع بلده الأردن(40). فقد جسدت مظاهر البيئة الأردنية من الريف والبادية بعدا جماليا، إذ إن هذه المظاهر تشكل حنين الشاعر إلى وطنه وضجره من غربته، يقول:

هل الرعاة إلى الأغنام قد ركبوا
على المزامير حتى مطلع الفجر
وفي البيادر هل "هب الهوا" وشدا
المذري فأشجى الروح بالسـحر(41)

ويقول في قصيدة "أين النشامى":

أين النشامى وراع ناح مـــجوزه
أين الشياه وأين الخيل والإبـــل
وما لعمان تأتي خلسة ... حلما
كظبي ناعور لما كان ينتـــــحل(42)

إضافة إلى ماذكر من خصائص فنية، فقد أكثر الشاعر العزازي من أسلوب التكرار في قصائده، وقد

أخذ يكثر من عبارات: الدمع والحزن والنار والشوق والعيون والحطب، وذلك في توتر شديد يعكس حالة الاحتراق الداخلي عند الشاعر، حيث أخذت نار الغربة والشوق، إضافة إلى الحالة المرضية التي عانى منها الشاعر في بلاد الغربة بعيدا عن الوطن وحنان الأهل تزيد من ولعه ولهفه إلى زيارة الأردن، ولذا فإن موضوع الغربة قد فرض على بنية القصيدة عنده لغة خاصة، فأصبح الشاعر يستخدم لغة الحزن والشوق والاحتراق فيبكي من أجل وطنه شوقا وحسرة(43). كما برز أيضا أسلوب الحوار والسرد في شعره، ولعل في ذلك ما يعوض الشاعر في غربته وعزلته عن حنان الأهل ودفء ربوع الوطن، ولذا فقد أخذ الشاعر يستحضر ويستدعي في حوار مع ابنته سلمى مشاهد اللقاء مع الأهل والمعاتبة فيما بينهم لطول غربته، ليظهر بذلك شوق كل منهما إلى الآخر مهما طال الفراق وطالت الغربة. يقول:

بالله ياسلمى إذا ماعاتب عتبا
على الفراق ولم يعلم له سببا
قولي أبي كانت الأشواق تحرقه
فكان في شوقه النيران والحطبا
وقد ترى الدمع في عينيه منبجسا
إذا ذكرت الحمى والأربع انسكبا
عمان كانت له لحنا وأغنية
وكانت الأم والأردن كان أبا
كانت قصيدته ... كانت معلقة
على الرموش تناجي الجفن والهدبا
بها تهجد ليلا حين نسمعه
إذا انطوى الليل الفيناه منتحبا (44)

This paper discusses some aspect of alienation in H.B. Azzazi poetry. Al-Azzazi is one of the Jordanian migrant poets whose poetry has not been careffully studied.

This study reveals the alienation of self and location in Al-Azzazi's poetry. It was affected by affects some of which is his illness suffering. Alienation is the most noticeable factor in the poetry of Al-Azzazi. His works of poetry were collected in what he called "Yuin Salma". The study also dealt with the effect of alienation on the artistic underground of Al-Azzazi's poetry.

1- ولد الشاعر الأردني المغترب حسن بكر العزازي في مدينة عمان سنة 1936. وقد أنهى دراسته الثانوية في مدارس عمان، وسافر بعدها إلى دول الخليج العربي، حيث عمل مدة قصيرة من الزمن، ثم سافر بعدها إلى هولندا. وقد حصل أثناء عمله في هولندا على درجة الماجستير في العلوم السياسية. وتسلم في إذاعة هولندا/امستردام منصب رئاسة التحرير لقسم الشرق الأوسط. والشاعر العزازي متزوج من سيدة هولندية ولـه ابنة وحيدة اسمها "سلمى"، ومن هنا جاءت تسميته لديوانه الوحيد ب(عيون سلمى). لقد عاش العزازي حياة صعبة وقاسية في ديار الغربة، حيث عانى لمدة عشرين سنة من مرض عضال، أنهى هذا المرض حياته بعد أن أفقده بصره وهو في مقتبل العمر. وقد كان العزازي قوي الإرادة، وقوي النزعة مع شدة حبه لبلده الأردن. وكتب العزازي في مجلات عربية وأوربية، وله مقالات في النقد الأدبي، وكتابات قصصية نشرها باللغة الإنجليزية في إذاعات هولندا وأمريكا واستراليا. وقد تحدث في قصصه عن هموم العمال العرب والأجانب، ولا سيما أنه قد تلمس هموم هذه الفئة الكادحة من الناس من خلال عمله كعضو منتخب في مجلس العمال الأجانب في هولندا. ويحمل العزازي الجنسية الهولندية، وقد توفي بعد مرض عضال، ودفن في هولندا في 1983/12/16، وذلك على غير ما تمنى بأن يدفن في ثرى وطنه الأردن، ليكون تكفيرا له عن غربته خارج وطنه. يقول:

تمضي الليالي وأحلامي معلقة
إلى رباه فليت البين لم يكن
يطير بي الشوق للأردن كل غد
على جناح أو ان بعد لم يئن
وما يحل غد رغم الوعود به
كأنما الغد لم يحبل به زمني
إني أعيش بحلم لا يفارقني
حتى تفارق روحي يومها بدني
إن تدفنوني به إن حل بي أجلي
بطيب ذلك الثرى بشراك ياكفني
(عيون سلمى،ص 25)

انظر عن حياة الشاعر:

- حسن بكر العزازي: عيون سلمى: عيون سلمى (توطئة الديوان)، دار البتراء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1983.

- محمد سمحان: حسن بكر العزازي في عيون سلمى (ضمن كتابه: مقالات في الأدب الأردني المعاصر)، منشورات وزارة الثقافة والشباب والآثار، عمان 1984، ج1/ص 47.

- حلقة اذاعية خصصت للحديث عن الشاعر حسن بكر العزازي ضمن برنامج "من أدبنا" الذي بثته الإذاعة الأردنية مساء يوم الاثنين 1991/1/14.

2- ولما كان موضوع (الاغتراب) ليس مجال هذا البحث فلا بد اذن من إضاءته في هذا الهامش. فالاغتراب يشكل أكبر مشكلة يعاني منها انسان القرن العشرين، حيث انفصل الانسان عن الانسان في المكان وتباعد في الزمان. فالمعاناة والشعور بالوحدة وبالقضاء المحتوم تشكل سمة واضحة في شخصية وسلوك المغتربين. فالاغتراب نمط من التجربة يعيش الانسان المغترب من خلال هذه الظاهرة المرضية كشيء غريب، والاغتراب يشكل تنافرا بين الطبيعة الجوهرية للشخص المغترب ووضعه وسلوكه الفعلي. ويلاحظ ف.و. ديلستون أن الاغتراب عند هيجل يوجد في بنية العمل شروط العمل البشري التي تضطره لأن يغترب عن عمله، وعن ذاته، وعن زملائه. بينما يؤكد ريتشارد شاخت في كتابه "الاغتراب" أن هذا الموضوع يرتبط بحالة مرضية يعاني منها الانسان، سواء أكان ذلك من خلال القصور العقلي أو الصراع أو فقدان الوعي. كما أن ثمة استخداما آخر للاغتراب بمعنى الغربة بين البشر ففعل Alienare يفيد معنى التسبب في فتور علاقة شخص مع آخر أو في حدوث انفصال. ولهذا فإن الغربة المكانية تمس في بعض الحالات جانبا أو مظهرا من مظاهر الاغتراب. بيد أن هذا

المصطلح "الاغتراب" ما زال غامضا ويعاني من قلة المصادر والبحوث، وبخاصة في مجال اللغة العربية، وطبيعي أن هذا الغموض، والندرة في المصادر يعودان إلى اتساع وشمولية هذا المصطلح، ولا سيما أن الاغتراب قد أصبح بشكل ظاهرة انسانية لا تقتصر على المجتمع الصناعي فقط، وأصبح يعني كذلك نمطا اجتماعيا متعدد المظاهر، منها الانسلاخ عن المجتمع، أو الانعزال، أو العجز وعدم التلاؤم، والاخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع.

حول هذه الاضاءة المختصرة لمصطلح الاغتراب، انظر:

- ف. شيرينا: الاغتراب والأدب المعاصر (ضمن كتاب لمجموعة من المؤلفين بعنوان: دراسات في الأدب والمسرح)، ترجمة نزار عيون السود، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق 1976، ص 33.

- أريك فروم: الحب في قبضة تنين الاغتراب (ضمن كتاب: الاغتراب في الفلسفة المعاصرة لمجاهد عبد المنعم مجاهد)، سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1985، ص 13-14.

- مجاهد عبد المنعم مجاهد: هيدجر راعي الوجود، سلسلة "المغتربون"(1)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1983، ص 17.

- جون ماكوري: الوجودية، ترجمة: امام عبد الفتاح امام، سلسلة عالم المعرفة رقم 58، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1982، ص 285.

- إبراهيم محمود: الاغتراب الكافكوي، "مجلة عالم الفكر"، العدد يوليو - سبتمبر، الكويت 1984، ص 79.

- ريتشارد شاخت: الاغتراب، ترجمة: كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية، بيروت 1980، ص 63-.

- أحمد أبو زيد: الاغتراب، "مجلة عالم الفكر"، مج10، الكويت 1979، ص 4-5 (المقدمة).

3- العزازي: عيون سلمى، ص 15.

4- ماهر حسن فهمي: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، دار القلم، الكويت، ط 2، 1982، ص 7-.

انظر عبده بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، "مجلة عالم الفكر"، العدد ابريل - يونيو، الكويت 1984، ص 13-15.

5- انظر نوري حمودي القيسي: الحنين والغربة في الشعر العربي (فصل ضمن كتاب للمؤلف نفسه بعنوان: محاولات في دراسة اجتماع الأدب)، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ط1، 1987، ص 84. عبد الرزاق الخشروم: الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1982، ص 13-15.

6- انظر العزازي: عيون سلمى، ص 47-49، 59-60، 65.

7- انظر بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، ص 24.

8- العزازي: عيون سلمى، ص 45.

9- المرجع نفسه، ص 27-28.

10- انظر، خالدة سعيد: حركية الابداع في دراسات الشعر العربي الحديث، دار العودة، بيروت، ط1، 1979، ص 44.

11- العزازي: عيون سلمى، ص 31.

12- انظر، سعيد: حركية الابداع، ص 30.

13- العزازي: عيون سلمى، ص 73-74.

14- سورة المسد: الآية1.

15- حول علاقة المرض بالشعر في الأدب العربي، بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، ص 24.

القيسي: الحنين والغربة في الشعر العربي، ص 87.

فهمي: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ص 242.

16- العزازي: عيون سلمى، ص 53-54.

17- المرجع نفسه، ص 81.

18- سمحان: حسن بكر العزازي في عيون سلمى، ص 58.

19- العزازي: عيون سلمى، ص 77.

20- المرجع نفسه، ص 25.

21- انظر، زكريا إبراهيم: مشكلة الانسان، مكتبة مصر -الفجالة- القاهرة، تقريبا 1971، ص 37.

22- انظر. الهامش رقم(1) في هذا البحث.

23- انظر. بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، ص 34.

24- العزازي: عيون سلمى، ص 31-32.

25- انظر أحمد بسام ساعي: حركة الشعر الحديث في سوريا من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1987، ص 441.

26- ساعي: حركة الشعر الحديث في سوريا، ص 457.

27- العزازي: عيون سلمى، ص 28.

28- المرجع نفسه، ص 33.

29- المرجع نفسه، ص 34.

30- بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، ص 34،38.

31- المرجع نفسه، ص 37.

32- العزازي: عيون سلمى، ص 32.

33- بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، ص 38.

انظر. سمحان: حسن بكر العزازي في عيون سلمى، ص 60.

34- العزازي: عيون سلمى، ص 44.

35- المرجع نفسه، ص 35.

36- المرجع نفسه، ص 37.

37-المرجع نفسه، ص 42.

38- بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، ص 38.

39- العزازي: عيون سلمى، ص 35.

40- جاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد 1980، ص 46. انظر كذلك مقدمة مترجم الكتاب، ص 7.

41- العزازي: عيون سلمى، ص 32.

42- المرجع نفسه، ص 43، النشامى: جمع نشمي وتعني في الأردن وبلاد الشام والجزيرة العربية

الشجاع وأصلها من التعطر بالمنسم وهو نوع من الطيب كانوا قديما اذا تعطروا به اشتد القتال والخصام بينهم في الحرب، المجوز هو آلة موسيقية تشبه الناي.

43- اضافة إلى الاقتباس رقم 44 الذي يجسد هذا البعد الفني، انظر كذلك الأمثلة الشعرية التالية في ديوان عيون سلمى: ص 37، 40-44، 53، 73-75.

44- العزازي: عيون سلمى، ص 75.

المراجع العربية والمترجمة.

1- إبراهيم، زكريا: مشكلة الانسان، مكتبة مصر، الفجالة - القاهرة، تقريبا 1971.

2- أبو زيد، أحمد: الاغتراب، "مجلة عالم الفكر"، مج10، الكويت 1979 (المقدمة ص 3-12).

3- باشلار، جاستون: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد 1980.

4- بدوي، عبده: الغربة المكانية في الشعر العربي، "مجلة عالم الفكر"، العدد ابريل - يونيو، الكويت 1984 (ص 13-14).

5- الخشروم، عبد الرازق: الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1982.

6- ساعي، أحمد بسام: حركة الشعر الحديث في سوريا من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1978.

7- سعيد، خالدة: حركية الابداع في دراسات الشعر العربي الحديث، دار العودة، بيروت، ط1، 1979.

8- سمحان، محمد: حسن بكر العزازي في عيون سلمى (ضمن كتاب مقالات في الأدب الأردني المعاصر) الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة والشباب والآثار، عمان 1984.

9- شاخت، ريتشارد: الاغتراب، ترجمة: كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية، بيروت 1980.

10- شربينا، ف: الاغتراب والأدب المعاصر (ضمن كتاب دراسات في الأدب والمسرح لمجموعة من المؤلفين)، ترجمة: نزار عيون السود، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق 1976.

11- العزازي: حسن بكر: عيون سلمى، دار البتراء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1983.

12- فروم: إريك: الحب في قبضة تنين الاغتراب (ضمن كتاب: الاغتراب في الفلسفة المعاصرة لمجاهد عبد المنعم مجاهد)، سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1985.

13- فهمي، ماهر حسن: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، دار القلم، الكويت، ط2، 1981.

14- القيسي، نوري حمودي: الحنين والغربة في الشعر العربي (فصل ضمن كتاب للمؤلف نفسه بعنوان: محاولات في دراسة اجتماع الأدب)، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ط1، 1987.

15- ماكوري، جون: الوجودية، ترجمة: امام عبد الفتاح امام، سلسلة عالم المعرفة رقم 58، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1982.

16- مجاهد، مجاهد عبد المنعم: الاغتراب في الفلسفة المعاصرة، سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1985.

17- مجاهد، مجاهد عبد المنعم: هيدجر راعي الوجود، سلسلة "المغتربون"(1)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1983.

18- محمود، إبراهيم: الاغتراب الكافكوي، "مجلة عالم الفكر"، العدد يوليو - سبتمبر، الكويت 1984 (ص 77-124).

البرامج الاذاعية

1- حلقة اذاعية عن الشاعر حسن بكر العزازي ضمن برنامج "من أدبنا" الذي يذاع من اذاعة المملكة الأردنية الهاشمية. تاريخ الحلقة مساء الاثنين 14/1/ 1991 م.